

تمهيد:

تتسع الآليات السردية لتشتغل على مقارنة الخطابات ضمن ما اصطلح عليه بسمية سرديات الخطاب، وتتحدد هذه الأخيرة انطلاقاً من "الأهمية التي أصبحت تكتسبها السرديات والموقع الذي تحتله بالنسبة لتحليل الخطاب، هذه النظرية الواثقة من استقلالها الذاتي الممثلة حديثاً، قد خصت نفسها حسب تعبير ميشال ماتيوي - كولا باسم العماد المحاط بهالة العلم La Narratologie " وهي تهتم بتحليل مكونات السرد وإوالاته، هذا التحليل يصب في اتجاهين: يعرف الأول منهما بالسميائيات السردية، وينشغل تحديداً بسردية القصة من خلال دراسة المضامين السردية بقصد الوقوف على البنيات العميقة والكلديات المعروفة والتي تتجاوز الجماعات اللسانية، وقاعدة الانطلاق هنا هي أن الحدث نفسه بإمكانه أن يكون مقدماً عبر وسائط متباينة، ومن ممثلي هذا النحو من الدراسة بروب، بريمون، غريماس. أما الاتجاه الثاني، فيتخذ موضوعاً لدراساته ليس القصة بل الخطاب من حيث هو طريقة نوعية لتشخيص القصة لفظياً "ومن حيث هو طريقة نوعية لظهور السارد كذات للتلفظ، وأخيراً من حيث هو الذي يجعل السرد ممكناً، محيناً، قابلاً للتحليل، هذا الاتجاه يدرس العلاقات القائمة بين مستويات الخطاب والقصة والسرد أو الحكى، غير أن اتساع المجالات التعبيرية التي يشملها مصطلح السرد أصبح يستلزم نوعاً من التوافق بين الاتجاهين"¹.

أولاً-سرديات الخطاب:

ميكانيزم المقاربة يعول على الجمع بين عديد عناصر تتبثق ما بين السرد، والقصة، والخطاب، ف" ما يميز الأجناس السردية عن غيرها ليس هو الصيغة فحسب (تصور جنيت)، ولا هو الموضوع وتنسيق الأحداث (تصور بول ريكور)، إن ما يميزها قبل كل شيء هو أنها تحيل على فعل وعلى متوالية حدثية (تصور ميشال ماتيو - مولا). إن سردية خطاب ما لا تتأكد فقط بواسطة الصور البلاغية اللفظية، بل تتأكد أيضا بواسطة اشتغال الخطاب على قصة ما، مع ما يرادفها من اصطلاحات من قبيل حبكة أو متن حكاوي، إنها تتأكد كذلك بوجود أحداث مستعادة يتم إدماجها في إطار النص، وبوجود شخوص بها تتعلق هذه القصة، وأخيرا بوجود ذات للتلفظ بدونها لن يكون هناك خطاب سردي أيا كان شكله"². إذن، هناك القصة ومن مشمولاتها الشخصية، الحبكة، المتن الحكائي، مفارقة الاسترجاع، وأخيرا تمثله ذات للتلفظ التي تعطي صبغة الخطاب السردية، وبهذه اللملة يمكن الحديث عن سرديات الخطاب.

تعول سرديات الخطاب على " استلهاج اللسانيات واعتمادها نموذجا للتحليل، لم يحل دون التأكيد على محدودية هذا النموذج بالقياس إلى تعقد الخطاب السردية والأدبي منه بشكل خاص، وهو الأمر الذي يستلزم أسسا نظرية وإجرائية تتجاوز لسانيات الجملة وتشيد لسانيات أخرى لها كفاية أكبر في مواجهة الخطابات ذات الشكل المركب والمعقد، يتعلق الأمر بما أصبح يعرف بـ العلم عبر - اللساني"⁴، إنها بداية التأسيس لما عرف بالسرديات اللسانية، وكانت غايتهم هي الكشف عن بنية الخطاب السردية مستفيدين من النموذج اللساني الذي كان رائجا في تلك المرحلة⁵، وذلك بوضع نحو الحكاية انطلاقا من النموذج النحوي البسيط.

من بين المشتغلين على سرديات الخطاب نذكر آن بانفيلد، جاب لينتقلت، ميشيل رايمون، فلاديمير كريزنسكي، وأخيرا تزفيتان تودوروف، مؤسسا بذلك لسرديات الخطاب من خلال الاشتغال على منطق الأفعال الروائية، وتبقى معنا دائما فكرة التنويه بهذه

الآليات الإجرائية لتحليل الخطاب السردى بأن مرجعيتها غريبة، وسنتمثلها في معطائها الأصلي.

ثانياً-آليات تودوروف لسرديات الخطاب:

اشتغل تودوروف على آليات سرديات الخطاب مقاربا بذلك رواية العلاقات الخطيرة ، وذلك من خلال معالجة " منطق الأفعال الروائية " داخل السرد دون الأخذ بعين الاعتبار العلاقة التي تربط تلك الأفعال الروائية المأخوذة مع باقي عناصر السرد الأخرى، فكان الناتج أن تلك الأفعال تأخذ أنماطا متعددة تراوحت بين التكرار، النموذج الثلاثي، وأخيرا النموذج التناظري .

1-التكرارات : لقد توصل تودوروف إلى أن الأنموذج السردى المقارب على مستوى الأفعال الروائية قائم على التكرار ، كما لاحظ أن هذا الأخير قد أخذ أشكالا ثلاثا هي التطابق والتدرج وأخيرا التوازي.

أما التطابق وهو التقابل - حسب تودوروف - والذي يفترض إدراكه وجود جزأين متشابهين في كلا طرفي الطباق ، وبيان الطرح أنه إذا كانت هناك رسائل متبادلة بين طرفين مختلفين فمن البديهي أن تلك الرسائل المتتالية تكون مختلفة مما يهب المقارب فرصة منحه إحداث التطابق بينهما لاستخراج مواطن التشابه. وأما إذا كانت الرسائل المتتالية قد كتبها شخص واحد فذلك التقابل سيكون محصورا في المحتوى؛ لأن هذه الرسائل المتتالية ومن شخص واحد مستحيل أن يكون لها محتوى واحد. ومما نشير إليه هنا في هذا العنصر أن تودوروف لم يعزز مقارنته بشواهد سردية .

أما على مستوى التدرج فيرى تودوروف أن الرسائل المتتالية يمكنها أن تمثل لنا العلاقة بين الشخصيات وذلك كفعل روائي ، وإذا كانت تلك الرسائل العاكسة للعلاقات متماثلة فإنها تؤدي إلى الرتبة، ولهذا تحتاج تلك الأفعال عبر الرسائل المتتالية إلى التدرج في

الكشف عما تريد الكشف عنه، ومثال ذلك رسائل السيدة تورفيل، التي كانت في كل رسالة من رسائلها تقدم شيئاً إضافياً متدرجاً عن باقي مضامين رسائلها السابقة حتى وصلت إلى ما تريد في الرسالة التسعين 90 من اعتراف بحقيقة العلاقة مع الآخر، وهذا الاعتراف هو نتيجة منطقية لما سبق من تقديمات وإضافات في الرسائل السابقة.

وأما التوازي فهو ما تكون من متاليتين تحملان عناصر متشابهة وأخرى مختلفة، والتوازي نوعان: توازي خيوط العقدة ويخص الوحدات الكبرى للسرد، مثال هذا أحد الرسوم المتوازية تضع الثنائي فالمون / تورفيل مقابل الثنائي دانسني / سيسيل، فنجد دانسني يطلب من سيسيل أن تمنحه حق مكاتبته، مثلما يفعل فالمون مع تورفيل، ويحصل الرفض، كما تتقابل العواطف الإيجابية مع العواطف السلبية للمتراسلين.

وهناك توازي الصيغ التعبيرية "التفاصيل"، حيث يركز هذا الصنف الثاني على تشابه الصيغ التعبيرية اللفظية والتي تتمفصل داخل ظروف متماثلة، مثال ذلك سيسيل تنهي إحدى رسائلها قائلة "علي أن أنتهي لأن الساعة تقترب من الواحدة، ولن يتأخر السيد فالمون"، الرسالة 109، وتختتم السيدة تورفيل الرسالة بصورة مشابهة "أريد عبثاً أن أكتب إليك وقتاً أطول، ولكن هاهي الساعة التي وعد فيها فالمون بالمجيء، لقد طردت عني فكرة مجيئه كل الأفكار الأخرى"، الرسالة 132.

2- النموذج الثلاثي: يذهب تودوروف إلى أن السرد يبني على نموذج ثنائي أو ثلاثي، أما الثلاثي فيقوم على سرود صغرى متسلسلة أو قد تكون متداخلة، وكل واحد من هذه السرود الصغرى يتكون من عنصرين أو ثلاث عناصر، ويكون حضورها ضروري، هذه السرود تقابل مواقف جوهريّة في الحياة مواقف يمكن الإشارة إليها بكلمات مثل خداع، تعاقد، حماية.. يطبق هذا على رواية "العلاقات الخطيرة"، تحديداً العلاقة بين فالمون وتورفيل، فتكون العلاقة عند فالمون مبنية على الرغبة في نيل الإعجاب وتقابل رغبته هذه بجملة من الاعتراضات من أطراف خارجية ومتباينة، في حين

تجسد تورفيل نوعاً آخر من العلاقة وهو يتأسس على منح التعاطف في الوقت الذي يقابل فيه هذا السلوك باعتراضات من أطراف أخرى خارجية متباينة، وعلى الرغم من ذلك تستمر العلاقة إلى أن تصل إلى علاقة إبرام حلف .

3- النموذج التناظري : يحتاج النموذج التناظري إلى أربعة أعمدة ، وكل واحد منها يشكل صيغة من صيغ النموذج التناظري وكل عمود مؤسس على الإسقاط التركيبي لشبكة من العلاقات الاستبدالية ، فنكتشف إذن داخل مجموع السرد تبعية بين بعض العناصر فنسعى أن نجدها ثانية داخل التتالي، وهذه التبعية في معظم الأحوال هي تناظر، أي علاقة تناسبية من أربعة عناصر ($A / B = a / b$)، يدعو تورفيل إلى سلوك الترتيب المعاكس وذلك من خلال محاولة إعادة ترتيب الأحداث الروائية المتعاقبة بكيفيات مختلفة حتى تتكشف بنية العالم المعروض انطلاقاً من العلاقات التي يتم قيامها داخل الأعمدة كتلك التي بين فالمون وتورفيل، وهنا تتم قراءة الأسطر الأفقية التي تمثل الجانب التركيبي للسرد، وينبغي بعد ذلك مقارنة القضايا التي وضعت إحداها فوق الأخرى (في عمود واحد يفترض فيه أنه محور استبدالي) والبحث عن القاسم المشترك بينها، وأنموذج هذا من رواية العلاقات الخطيرة، أن القاسم المشترك في العمود الأول تعلق بموقف فالمون اتجاه تورفيل، في حين العمود الثاني يتناول تورفيل ويحدد سلوكها أمام فالمون، والثالث لا يحوي على قاسم مشترك، والأخير يتناول محمول مشترك هو الرد والرفض. وبهذا تتحدد العلاقة حسب صيغ النموذج التناظري أن فالمون يشكل الفعل أما تورفيل فتتمثل ردة الفعل .